الباب الثالث

تنازع البقاء الأيديولوجى
فى المجتمع الإسلامى المعاصر

- فى ميزان التقييم .
- فى ميزان القوى .

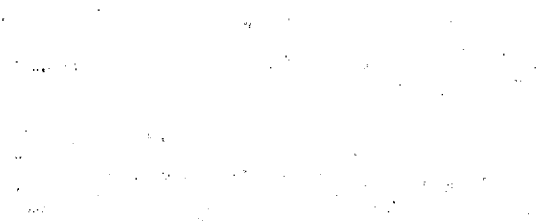

الفصل الأول

فى ميزان التقييم

الاتجاه العلمانى :

● اقتحم الاتجاه العلمانى مجتمع المسلمين فى أى مكان احتله المستعمر الصليبى ، منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وقبله فى بعض البلاد الاسلامية ، وأخذ يسعى لتوطيد قدمه .. وشغل الفراغ الذى تركه الاسلام فى تراجعه فى حياة المسلمين .

وكان يعتمد هذا الاتجاه فى سعيه نحو التوطيد وشغل الفراغ .. على قوة المستعمر الأجنبى فى احتضانه ودفعه . ومن جانب آخر كان يعتمد على ضعف الذين احترفوا بالدعوة الاسلامية ونصبوا أنفسهم .. حفظة ورعاة لتعاليم الاسلام ومبادئه .

... اقتحم الاتجاه العلمانى مجال التعليم فى المجتمع الاسلامى ، وبعد فترة من الزمن تمكن منه ، واستطاع أن يكون الأساس فى تخريج المثقفين ، والمفكرين ، والبورجوازيين فى أجيال هذه المجتمعات .

... ونزل مجال التشريع والقضاء ، واستطاع أن يرد فقه الاسلام عن الحياة السياسية والمدنية ... الى علاقات الأسرة المسلمة وحدها .. فى العلاقات الزوجية والأحوال الشخصية .

... ونفذ الى التوجيه فى المجتمعات والحياة العامة ، وعارض بنزعته **اللادينية** فى صلابة وجراة ... **رأى الاسلام فى حلول المشاكل ، أو فى قيامها .**

... واستولى على نظام الحكم بفلسفته الانسانية ، التى تسقط الدين واعتباره ، وتولى العناية بالانسان كصاحب « خالقية » واستقلال ، دون حاجة الى ما يسمى : بهداية السماء .. وكتاب الله .

● وأخذ يغالب الاسلام فى عنف ، ويقهره على الاستكانة والتخلى عن سيادته ، طوال فترة الاستعمار .

... وبعد استقلال المجتمعات الاسلامية لم يعد الوضع أحسن بالنسبة للاسلام فى عهود الحكم الوطنى .. لأن هذا الحكم الوطنى اعتمد على الجيل الجديد .. وهو ذلك الجيل الذى نشأه الاتجاه العلمانى فى المدارس **العصرية** .. وعلى أساس من توجيهه ونزعته .

... فكان نداء هذا الحكم الوطنى .. بعد الاستقلال :

الدين للديان ، والوطن للجميع !

... وكان شعاره : الحياة المعاصرة ، واستكمال اقتباس نظمها : السياسية ، والادارية ، والتشريعية ، والتعليمية ، والفنية ، والعلمية ، والأدبية ، من الغرب ، **حتى يصبح المجتمع حضاريا معاصرا ، وليس رجعيا متخلفا !! ..**

... وحملت كلمة : الحضارة المعاصرة : كل معانى البعد عن الماضى وتراثه ... كما حملت كلمة : الرجعية ، كل معانى البغض والكراهية لذلك الماضى .. مهما كانت له من قيمة ذاتية .. ومهما دخل فيه من تعاليم الاسلام ومبادئه !

وشعار : الوطن للجميع .. أصبح يخفف من وزن الاسلام ، ويقلل من اعتباره .

والحياة العصرية أصبحت تبعد البقية الباقية منه عن الحياة العامة .. وترد المظاهر الاسلامية الى المسجد ، الذى تخلف بدوره عن **الامامة** وتشبث بالشكل ورسم العبادة التى تؤدى فيه ، وعزل نفسه تماما عن حياة المسلم اليومية ، وحياة مجتمعه .. وأصبح الحجاب بينه وبين هذه الحياة الاجتماعية .. هو جدار هذا المسجد الذى يفصل خارجه عن داخله .

ولو أن الاتجاه العلمانى ، **ونزعته اللادينية** ، فى المجتمعات الاسلامية .. كان يشدد على ابعاد الديانات الأخرى فيها ، وبالأخص المسيحية ، على

نحو ما يشدد على الاسلام ، ويهاجمها كما يهاجمه ... لكان صادقا فيما يرى .. ومؤمنا بنزعته ايمانا لا يشوبه نفاق .

... ولكن فى الوقت الذى ينكر فيه هذا الاتجاه فى المجتمعات الاسلامية .. على الاسلام توجيهه وتربيته ، ويصفها : **بالتخلف والرجعية** ... يعين على انشاء مدارس الارساليات الأجنبية التبشيرية فيه ، ويصفها : **بالتقدمية !!**

فكلية البنات الأمريكية مثلا وهى مدرسة تبشيرية مسيحية بالقاهرة ، والجامعة الأمريكية بها وهى كلية انجيلية تبشيرية ، والجامعة الأمريكية بلبنان ، وكذا جامعة القديس يوسف به أيضا ، وما على شاكلتها فى المجتمعات الاسلامية كالجامعة الكاثوليكية بجاكرتا فى اندونيسيا ... **جميعها رمز التطور والتقدم ، ونماذج لحضارة الحياة المعاصرة !!**

.... الاتجاه العلمانى يبارك انشاء مثل هذه المؤسسات التعليمية ، ويصفها بالتقدمية فى المجتمعات الاسلامية ... لأنه يبغى منها هدفا واحدا .. هدفا صليبيا .. هدفا استعماريا ... هو تحطيم القيم الاسلامية والعمل على ابعاد النفوس والقلوب عنها ، كى يخلق فراغا يسكنه هو نفسه .. بما يفرضه من التبعية .

ومعنى أن يشغل الاتجاه العلمانى الفراغ فى حياة المسلمين .. معادلة تساوى : شغل هذا الفراغ **بالتبعية** الفكرية ، والسياسية ، والتشريعية ، والادارية ، والتعليمية ، والتوجيهية ، والفنية ... **للغرب** ... ولما يقوم فيه اليوم وغدا : من نظم وأساليب للحياة الانسانية فى مجتمعه .

واذن : لم يكن من المستغرب : أن تناقش قضية وحى القرآن ، يوما ما فى جامعة فؤاد الأول .. (جامعة القاهرة الآن) ، باسم العلم ومنهجه فى البحث ، حتى يمنح التصديق لنتائج المنهج العلمى فى البحث ! وليس للوحى فى ذاته كوحى ! .. لم يكن من المستغرب أن يحتكم الى آثار المجتمع الجاهلى فى الجزيرة العربية قبل أن يحتكم الى ما ورد فى القرآن من قصص تاريخية ... لم يكن من المستغرب ذلك .. لأنه الاتجاه العلمانى ... ونزعته اللادينية بالنسبة للاسلام وحده .. ولأنه اتجاه المجددين العصريين فى المجتمع الاسلامى فى البلدان الاسلامية .. وفى مواجهة أصحاب الاتجاه القديم فيها !

ودرجت الأجيال الجديدة ، فى عهود الاستعمار ، ثم بعد ذلك فى عهود الحكم الوطنى فى أى مجتمع اسلامى ... على النزعة اللادينية الاسلامية ، التى مكن لها الاتجاه العلمانى فى أرض الاسلام والمسلمين ، من قبل .

ولم تحاول هذه الأجيال أن تضع هذه النزعة موضع المناقشة .. لم تحاول أن تراجعها وتقف على قيمتها فى بناء المجتمع الجديد بعد الاستقلال ... لم تحاول أن تفعل ذلك : لأن هذه الأجيال تعيش نفسها فى فتـــــرة **حضانة** بين يدى هذه النزعة .. ولم تصل بها أحداث المجتمعات الاسلامية بعد ، وعوامل تطورها الى الوقوف أمامها .. ومناقشتها .. واعادة تقييمها .. والأخذ بما تسفر عنه هذه المراجعة فى التخطيط لمستقبل هذه المجتمعات .

.... ان ممارســـــة الأجيـــال الجديدة للحكم الوطنى فى المجتمعات الاسلامية بعد الاستقلال السياسى .. تسير على تقليد الغرب فى كل ما له من نظم .. لأنها ورثت أصول هذه النظم من الغرب المستعمر فى مجتمعاتها الاسلامية التى منحت الاستقلال السياسى منه .. ومن السهل عليها أن تستمر على أساس منها عن طريق .. المحاكاة والتقليد .. بدلا من التأصيل من جديد على تراث الماضى فى تلك المجتمعات .

... ولأنها كذلك غير مستعدة بحكم تكوينها الثقافى ، والتوجيهى .. أن تنظر فى هذا التراث **نظرة فاحصة** .

.. وكذلك بسبب ما أسدل على هذا التراث من ألوان قاتمة صرفت نفوسها عنه ، ورسمت فى تصورها اياه .. شبحا رهيبا ، يخيف ويفزع قبل أن يشجع على الاقدام عليه ..

● وقد استصحب الاتجاه العلمانى فى المجتمعات الاسلامية مع ذلك .. دعوى :

التجديد فى طبيعته ولحقه فى التصور له .. حسن الاعتقاد فيه على أنه : يمثل الانسانية فى صورتها الحضارية ، كما يمثلها من جانب آخر .... ذلك التقدم العلمى والتكنيكى فى الصناعات لدى المجتمعات التى تبنته .. وهى المجتمعات الغربية .

.... وهذا وذلك من شأنهما أن يبعدا التخلى عن هذا الاتجـــــاه بسرعة .. ويحولا دون النظر اليه .. نظرة الفاحص المستعرض لعنـاصر قيمته الذاتية .

ولم يكن شأن هذا الاتجاه فى المجتمعات الغربية فى الضغط على الدين فيها ، من المسيحية أو اليهودية .. كشأنه فى المجتمعات الاسلامية عندما نقل اليها .. مع أنه كان وليد الثورات فى أوربا ، ونتيجة المصادمات الفكرية والسياسية والفنية هناك .. لم يكن له هذا الشأن هناك فى مجتمع الغرب ، لأنه قبل ظهوره ، وقبل دخوله فى الصراع من أجل البقاء .. كانت هناك

سلطة للدين ، هى سلطة الكنيسة . وكانت هذه السلطة تمارس اختصاصها فى جميع جوانب الحياة : السياسية ، والعسكرية ، والاقتصـــادية ، والفكرية والتوجيهية ... فكانت لسلطتها قوة ... وهيبة ..

ولم تزل ، بعد أن وجدت فى **ثنائية** مع السلطة الجديدة ، وهى سلطة العلمانية للدولة .. تمارس سلطانا ونفوذا ، وان كان فى مجال أقل وأضيق عن ذى قبل ولكنها مع ذلك سلطة ، تدافع عن المسيحية أو اليهودية .. وفى بعض الأحيان يتاح لها التدخل فى التغيير فى مجال الدولة نفسه .. وفى اختصاص سلطتها القائمة على العلمانية .. وفى سياستها وتشريعاتها .

والقوة التى تمثل الماضى فى المجتمعات الاسلامية قوة لم تكن تستسلم للاستعمار ابان قوته .. ولكنها تستسلم للحكم الوطنى بعد الاستقلال .. أكثر من أن تعارضـــه . لأن هذا الحكم منذ أن قام .. دفع بتلك القـــوة الاسلامية الى محيطه فى النفوذ والسياسة ، عن طريق مد سلطانه الى المصدر الذى تعتمد عليه فى الحياة والرسالة معا ، وهو مصدر : **الأوقاف** .

... واصحاب هـــذه القوة ، وهم العلمـــاء .. أصبحوا بسبب تلك الولاية السياسية والاقتصادية **موظفين ، أكثر منهم أصحاب رسالة وفكرة** ... عليهم الطاعة .. وعليهم أزيد من ذلك تبرير جميع تصرفات الحكم الوطنى من الوجهة الاسلامية !

... مع أن المستعمر ، وقت استعماره ، لم يستطع أن يمد نفوذه مدا مباشرا ، أو فى فاعلية نافذة .. الى أرباب هذه القـــوة ، وانى مصدرها فى الحياة والرسالة . لأنه كان يخشى اثارة الشعور العام ... الشعور بالمساس بالدين : وهو أجنبى عنه ..

وكان يترك أمر الضغط على هذه القوة فى صورة أو فى أخرى الى . « الوطنيين » انفسهم : ممن هم فى خدمته وخدمة رسالته ، أو ممن هم يتصرفون طبقا لنزعة الاتجاه العلمانى اللادينى لديهم .

ووضع المجتمعات الاســـلامية الحديثة ، يوم أن اقتحمها الاتجـــاه العلمانى مع الاســـتعمار الصـــليبى ... كان يختلف عنه يوم أن دخلتها الفلسفة الاغريقية الوثنية فى العصر العباسى . ولم يكن اقبال المسلمين على ترجمة هذه الفلسفة الى اللغة العربية اذ ذاك ... أمارة ضعفهم واستسلامهم لما جاء فيها من أفكار ومبادىء ، على نحو ما استسلموا للاتجاه العلمانى ونزعته اللااســـلامية ، عندما اقتحم بابهم .. وثبت قدميه على أرضهم .

... ان الفلسفة الاغريقية الوثنية لم تقتحم المجتمع الاسلامى ، وانما ظل المجتمع الاسلامى هو الذى امتد الى مقار مدارسها فى : الشام .. والاسكندرية ، فوجدها ، ووجد لها أتباعا .. ومصادر .

ويوم أن حث الخلفـــاء على نقلهـــا من السريانية أو اليونانية الى العربية ... حثوا عليها تحت تأثير جانب فيها وهو المنطق الصورى لأرسطو .. وما بدا فيه من دقة كانت تختلف عن طابع الأدب العربى وفضفاضيته .. وكذلك تحت تأثير **سمعة** الحكمة على العموم ، وما تحمل من تأثير ، فى ذلك الوقت نحو التفتيش عنها !

ورغم اقبال بعض العلماء من المسلمين على دراسة الفلسفة الاغريقية ، وعلى تأييدها والدفاع عنها ... **فانها رافدا فحسب للفكر الانسانى ، ومنعزلا عن الاتجاه الأصيل للمجتمع الاسلامى وقتئذ .. وهو اتجاه الاسلام ونظامه .. ولم تصبح يوماً ما بديلا عنه .**

وفى الوقت الذى أقبل فيه بعض العلماء عليها ، ناوأها فيه بعض آخر منهم . وبقيت فى قيمتها لذلك .... موضع شك وريبة : والحكم على قيمتها كان من تعاليم الاســـلام .. وقبولها أو رفضـــها .. كان كذلك من مبادىء الاســـلام .

ولم يتراجع الاسلام أمامها ، ولم يخل مكاناً لها لشغله .. عوضاً عنه ...

وذلك على خلاف ما تم بالنسبة للاتجاه العلمانى فى المجتمعات الاسلامية الحديثة .... أتى به من الغرب وأفرغ له مكان فى المجتمع .. يتسع بامتداد الوقت ليشغله ويستقر فيه .

.... وروج له على أنه اتجاه الحياة المعاصرة ... بينما دفع بالاسلام الى الخلف على أنه يمثل : الماضى الذى لا يصلح للحاضر ! .. والغد . واحتفظ للاتجاه العلمانى بالسبق فى التوجيه .. كما احتفظ له وحـــده كقاعدة .. فى التعليم والتنشئة للأجيال المقبلة .

وكان الحكم على هذا الاتجاه وصلاحيته صادراً من الأجنبى الذى دفع به الى حياة المسلمين ، ولم يكن على أساس من تقييم المسلمين أنفسهم .. استنادا الى تراثهم العقلى ، والثقافى ، والروحى ، واستنادا أيضا الى أهدافهم ورسالتهم فى مجتمعاتهم التى تميزت بها .

... وأخيراً يوم أن حث الخلفاء والرجال الرسميون فى الدولة العباسية على نقل الفكر الغربى الى اللغة العربية .. ويوم ان شجعوا على دراسة

هذا الفكر والانتفاع بما فيه من جوانب علمية ، كبحوث الطبيعة والرياضة . . . كانوا أصحاب سيادة أخرى على توجيههم الاسلامى .

. . . لكن وقت أن اقتحم الاتجاه العلمانى المجتمع الاسلامى الحديث ، ويوم أن تمكن فيه من التوجيه . . لم يكن المسلمون هم أصحاب السيادة . . وانما كان السادة غيرهم فى مجتمعاتهم . . كان السادة : هم المستعمرون ، وكانوا أصحاب الكلمة النافذة فيها .

فكيفوا المجتمع القـادم على حسب ما يريدون لأنفسهم هم . . لا على حسب ما يؤمل ويرجى للمسلمين : من قوة . . واستقلال . . ورفاهية .

. . . ولم يكن أمامهم الا أن ينتقموا لهزائم الحـروب الصليبية . التى انتهت بانتهاء القرن الثالث عشر الميلادى . . ينتقموا من دين المسـلمين ، وهو مصدر تماسكهم وارتباطهم .

. . . ولم يكن أمامهم كذلك ـ لكى يبقى المسلمون أذلاء ، أتباعا لهم ـ الا أن يمكنوا لاتجاه العلمانية من السيطرة . فهو كفيل بابعاد الاسلام أولا من مجال التوجيه والحياة العامة ، وفى الوقت نفسـه . . كفيل بجذب المسلمين الى الحضارة الغربية ، والتبعية الى القيادة السياسية للغرب ، بحيث يستجيبون لكل داعية فيه !

وقد تكرر ذكر الاتجاه العلمانى ، فى الحديث : لأنه الأساس ، وليس الاستعمار المباشر . . فى هز قيم المجتمعات الاسلامية . وهو كما يعبر عنه Secularism : جملة من المبـادىء والتطبيقات ، ترفض أية صـورة من صور الايمان بالله والعبادة . . هو الايمان **بوجوب تنحية الدين وابعاده من الدخول فى أى شأن من شئون الدولة ، وعلى وجه أخص . . فى التربية العامة .**

واذا كان صراع المجتمع الأوربى ضد سلطة الكنيسة ، منـذ القرون الوسطى ، قد مهد لهذا الاتجاه فى المجتمع الغربى . . فان الثورة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر . . قد دفعت به الى الأمام فى الحيـاة السياسية الغربية . ومع ذلك لم يستطع أن يمارس نشاطه فى حرية وانطلاق فى تلك الحياة الغربية . . بفعل السلطة المقابلة ، وهى سلطة الكنيسة الكاثوليكية . . أو دولة الفاتيكان .

واذا كان العقد الثنائى بين الفاتيكان كممثلة المسيحية ، وأية دولة غربية ، عدا البروتستنتية . . يقضى بالفصل فى التطبيق العملى فى حياة المجتمعات : بين الكنيسة والدولة . . فان الكنيسة مع ذلك اقتحمت دائرة الدولة وبالأخص

فى جانبها السياسى . وذلك بانشاء الأحزاب الديمقراطية المسيحية ، كى تمارس سياسة الدولة .. فى غير غض من المسيحية .. أو فى غير تطرف ضدها ، بل فى عطف عليهـــا ، وتمكين لجميع النظم الدينية فى حياة المجتمع . وبذلك لا تكون الدولة فى عداوة مع الكنيسة .. بل فى خدمتها .

.... وبذلك أيضاً لم يصبح الاتجاه العلمانى فى المجتمعات الغربيـــة ذا خطر على الدين ، وهو المســـيحية .. الا يوم أن احتضنته الماركســـية اللادينية ، وطبقته الشيوعية اللينينية ، فأصبح صاحب خطر على الدين وعلى المؤسسات الدينية ، فى كل بلد يمارس فيه الاتجاه الشـــيوعى اللينينى من الماركسية .... السلطة فى الحكم .

وفى دساتير المجتمعات الاسلامية المعاصرة التى وضعها المستعمرون ، عند اعلانهم استقلال البـــلاد التى استعمروها ، والتى صاغها الوطنيون فى عهود حكوماتهم بعد الاستقلال عندما ينص فيها على ابعاد الدولة عن الدين فى ممارسة شئون الحكم .... قصد بذلك الى الفصل الواضح بين الاسلام وفلسفة الحكم الانسانى .. وهى تلك الفلسفة القائمة على الاتجاه العلمانى .

.... وربما لم تكن هناك مادة فى دستور ، وضع لمجتمع اسلامى معاصر ، أو سيوضع له بعد استقلاله ، حرص أصحاب الحكم الوطنى على تنفيذها ، وفى عنف أحياناً ، وفى أسلوب ســـاخر أحياناً أخرى .. مثل مادة : **الدين والدولة** .. فتتخذ اساســـا لتبرير الابقـــاء على كثير من المنكرات ..بل ولاضطهاد بعض المؤسسات الاسلامية ، والغاء بعض المنظمات الدينية .. بل وللثورة على كثير من فروض الاسلام : كالصوم .... والحج مثلا .

.... وذلك لكى يظهروا انفسهم وطنيين ، وهم سائرون فى خطوط الاستعمار الســـابق .... ويعلنوا عن تقدمهم ، وهم لم يقيموا بعد مقاييس التقدم .. الا بالأخذ من هنا وهنـــاك .. والتأرجح اليـــوم ، وغداً .. بين استحسان هذا .. وذاك .

* * *

● اهتزت القيم الأصيلة فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ،

● وغلب الاتجاه العلمانى ، بما ينطوى عليه من مطاردة للاســـلام ، ولمبادئه .. ومن ميل قوى لتقليد الغرب .. فيما له من حضارة ،

● وتأرجحت المجتمعات الاسلامية فى مقاييسها .. تبعاً لما تقتبسه من الغرب .. وتتبعه فى أى اتجاه تقلده فيه ،

● وبعدت الأصالة فى المجتمعات الاسلامية ، وبعد الاستقلال الفكرى ، والاقتصادى ، والسياسى ، والتوجيهى ، والثقافى ، والفنى فيها ... وأصبح الأمر مداً وجزراً .. بين كل متناقضة .. وبين اتجاهات مختلفة .. وبين عالمية وقومية .

نظم الحكم :

.... وقد رأينا من العرض لنظم الحكم السياسية التى تسود اليوم المجتمعات الاسلامية فى مواجهة رأى الاسلام ، الذى يعد النظام الأصيل لتلك المجتمعات ، بحكم تراثها وبحكم ما تنشده من استقلال واستقرار .... رأينا : أن النظام الرأسمالى كان وليد بيئة معينة ، هى البيئة الغربية ، وكان نتيجة لخصومة مريرة ، هى الخصومة مع الكنيسة ونظام القرون الوسطى .. وكان انطلاقاً بعد تحديد ، فبالغ فى انطلاقه وتجاوز كل حد معروف ... تجاوز حدود الانسانية نفسها .... وتجاوز حدود الأخلاق .. وطغى .. لأنه استغنى .

.... وكانت الدعوة الى النظام الاشتراكى كرد فعل .. ثم قيام النظام الماركسى .... فدفع الانطلاق الفردى ، وذهب به .. ثم بالغ فى وضع الحدود والقيود .. وذهب من جديد باستقلال الفرد ووحدته ، فى : كل لا يعرف فيه ، ولا تدرك له سمة ، مما كانت تميز استقلاله ووحدته ... وطغى وتجبر .. كما طغى النظام الرأسمالى قبله .

.... والضحية هنا ، وهناك : هم ملايين الأفراد العديدة فى المجتمعات الانسانية .

.... والطغاة هنا ، وهناك : قلة .. تستند الى المال ووفرته بأيديهم مرة .. أو الى الحرمان من المال .. ودعوى : ابعاد شبح الفقر .... من حياة الملايين مرة أخرى !

والنتيجة فى كلا النظامين :

حرمان لا يرد .. حرمان من الحرية الفردية .... وحرمان من متع الحياة الدنيوية .. حرمان لا يقهر ولا يغلب .. وخداع لا نهائى بدنيا المال والصناعة ، أو بالفردوس المزعوم على هذه الأرض .... يوم يتحقق وجود المهدى المنتظر ! ! وعلامة قدومه . انهيار الرأسمالية .. وسيادة الطبقة العاملة .. وقيام المجتمع العمالى العالمى !

واحتكاك كل واحد من النظامين بالآخر فى صراع أيديولوجى مرير ،

وفى اعداد لا ينتهى لوسائل الحرب المدمرة ، تسبب عنه شقاء الجوع ، وزيادة الحرمان للملايين من سكان العالم ، بالاضافة الى ما أشاعه من : القلق والاضطراب فى نفوس الأفراد وفى علاقات بعضهم مع بعض .. دفع القائمين بأمر كل من هذين النظامين منهما الى كسر حدة الطغيان ، والتفكير فى تخفيف الحرمان .. فكان خروج من أقصى اليمين ، وخروج آخر من أقصى اليسار ... وكانت محاولات للوصول من كل طرف الى الوسط ، ولكن أيهما لم يبلغه بعد ... وربما لا يبلغه واحد منهما الا بعد أجيال :

لأن الاتجاه الماركسى اللينينى ، الذى يرهب الرأسمالية ويدفعها الى العدول عن الاستمتاع بطغيان المال ، خشية أن يقضى عليها تماماً ... انقسم على نفسه ، وأصبح الميل التحريرى يصطدم مع الميل التقليدى الرجعى فيه ... أصبحت الشيوعية الروسية تحتك بالشيوعية الصينية ... أصبحت الأخيرة تتهم الأولى : **بالردة** .. وبعدم الولاء للماركسية اللينينية . لأن الشيوعية الروسية تسعى .. لصالح الانتاج الزراعى بوجه خاص ، ولصالح المستهلكين الذين طال حرمانهم سنوات من أجل القوة المدافعة عن الماركسية ... تسعى الى التحرر من الفروض النظرية التى صاغها ماركس .. ودل التطبيق العملى على ضررها بالنسبة للانتاج ..

وقد وصل أمر التحرر من هذه الفروض فى سياسة روسيا الانتاجية .. أنها أصبحت تفكر فى : اعادة الملكية الزراعية بالغاء المزارع الجماعية ، ثم تمليك الأرض للأفراد(١) .

ولو عرف : أن ستالين كان يحدد الشيوعية ، بأنها : الغاء الفقر ، والغاء الملكية الفردية .. لعرف ما تدل عليه الحركة الجديدة فى روسيا من بعد عن النظام الماركسى اللينينى ، الذى جعله ستالين ... حقيقة واقعة .. بحملاته الدموية الارهابية مدة حكمه ، فى ثلاثين عاماً .

ومن شأن النزاع العقيدى .. أن لا يدفع بالحركة الشيوعية الى الأمام .. والى القوة العالمية المخيفة .

ومن ثم فالرأسمالية لا تتحرك ، أو تتحرك فى بطء ... نحو الوسط . وكذلك الحركة التحررية .. يقيدها هذا النزاع .. ضد السرعة فى الحركة .

---

(١) على نحو ما نشرت جريدة الأهرام المصرية فى الصفحة الأولى من عدد ١٨ اغسطس ١٩٦٥ .. عن صحيفة كومو مونولسكايا برافدا السوفيتية : أن الخبير السوفييتى زولين قال فى مقاله : انه يتعين على روسيا أن تعود الى نظام ما .. يسمح بالملكية الفردية للأرض الزراعية لحل مشكلات الزراعة التى تتجدد عاما بعد عام .. على ان تملك الأرض لن يفلحها .

والمجتمعات الاسلامية المعاصرة ، بحكم الوضع الذى فرض عليها عن طريق الاتجاه العلمانى ، والتبعية للحضارة الغربية ، تبعية يصعب معها الانفكاك عنها .. تتذبذب بين هذا النظام .. وذاك .

.... وفى أخذها من النظام الراسمالى لا تجارى المجتمعات الرأسمالية فى التعديلات التى أدخلت على نظام الحكم هناك لتحقيق صنوف الرعاية الاجتماعية المختلفة ، خروجاً من نقطة النهاية فى اليمين .. بل تقف جامدة ، وعلى نحو ما كان على عهد الاستعمار ، فى استغلاله الاقتصادى . وهنا تبدو ظاهرة :

المساواة وظاهرة تكافؤ الفرص .. باهتة لا لون لها ، أو معدومة كلية فى المجتمع الاسلامى ، الذى يسير وفق هذا النظام الرأسمالى .

.... وفى أخذ هذه المجتمعات الاسلامية من النظام الماركسى .. تقف به فى الجانب الاقتصادى .. فى دائرة واحدة منه ، وهى : التأميم أو الغاء الملكية الفردية .. دون أن تسير بفكرة الاشتراكية فى التشريعات المالية والادارية ... وفى غيرها من الجوانب الأخرى .. مما يحقق أسلوب الحياة الاشتراكية . وبهذا تزاوج فى الواقع بين بعض أجزاء النظام الاشتراكى المقتبس أخيراً .. ورواسب النظام الرأسمالى الموجودة قبلا . وهى مزاوجة ضارة ، حصيلتها : التعقيد فى نظام الحكم نفسه ، وفى فهم فلسفته ... حصيلتها تأكيد : **المتناقضات** .. وليست ازالتها .. كما يبغى الاتجاه الاشتراكى .. من الوجهة النظرية على الأقل .

.... وعدم العناية بالاسلام ، عند اقتباس النظام الاشتراكى فى أى مجتمع اسلامى معاصر ، لا يعود الى الايمان بالنظرية الماركسية .. **بقدر ما يعود الى اتباع الاتجاه العلمانى السابق** وأثر تجاربه العديدة فى : تمكينه .. وتوطينه .. فى المجتمعات الاسلامية .

ولو أعاد الوطنيون ، بعد استقلال المجتمعات الاسلامية سياسيا ، تقييم النظم الغربية ، وراجعوا فى الوقت نفسه نظام الاسلام ، كما يصوره كتاب الله .

لآثروا أن يكونوا مسلمين فى مجتمع اسلامى ، بدلا من أن يكونوا مستغربين فى بلد شرقى ، له تقاليده وتراثه الروحى والفكرى ... لآثروا أن يكونوا وطنيين ، لهم تاريخ ، ولهم حضارة ، ولهم مستقبل يجب أن يرتبط بهذا التاريخ وبتلك الحضارة .

.... ان ما آمن به كارل ماركس ، وان ما وصلت اليه الراسمالية قبله ..

تطرف فى النظرة الى : **المال والملك** . وما وقع من كارل ماركس .. كان يجب أن يقع ، بعد أن وصلت الرأسمالية الى ما وصلت اليه على عهده . لأن ذلك أمر حتمى لا شك فيه .

... ومن الحتمى كذلك : أن لا تبقى الماركسية عند حد المذهب اللينينى .. من الحتمى أن تنفك عنـــه : وقد انفكت عنه بعـــد قرابة أربعين عاما على وفاته ... من الحتمى أن تعود من : الغاء الملكية الفردية الى : اقرار الملكية الفردية من جديد ، وهى تحاول أن تعيد اليوم فى المزارع الجماعية تمليكها ، بعد تفتيتها .. الى من يفلحونها .. من الحتمى أن تصل الى الوسط .. من الحتمى أيضاً : أن تتجاوز هذا الوسط الى أقصى اليمين .. ثم ترتد عنه الى اليسار جملة ، مرة أخرى .. فيعود كارل ماركس آخر .. فى قرن آخر من قرون البشرية .. اذا قيض للبشرية البقاء .

.. من الحتمى ذلك : لأن الشىء فى تطوره لا بد أن يبلغ أولا .. نهايته . وبلوغ نهاية أى شىء ما .. هو فى وصوله الى ما يضاد بدايته :

ان كان حيا .. فسيكون ميتا ،
وان كان ميتا .. فسيبعث من جديد حيا ،

وان كان ظلاما .. فسيصير الى ضياء ،

وان كان ضياء .. فسيصير الى ظلام ،

وان كان ماء ملحاً .. فسيصير الى ماء عذب ،

وان كان عذباً .. فسيصير الى ماء ملح ،

وان كان ماء متجمداً .. فسيشع فيه الدفء ، وتشيع فيه الحـــرارة ، ويصير الى بخار ، فسحاب .. يعلو الأرض بعد أن كان متحجراً عليها .

والتطور قانون حتمى للحياة ، لا يختلف اطلاقاً ... يخضع له كل كائن ، مهما كان نوعه .. واذن لا مفر من تغيير النظام الرأسمالى .. ولا مفر كذلك من تغيير النظام الماركسى بعد فترة من الزمن تمر عليه .

والاســـلام فى نظامه أقر خصائص الطبيعة البشرية نفسها ، ووضع للمجتمع قوانينه التى تقوم على هذه الخصائص ، مجردة عن غرض ، وعن سبب آخـــر وراءها ... مجردة عن هوى وانفعال ... مجردة عن حزبية وطبقية ... الخ .

... ونظرته الى المال تحمى المجتمع من أن يكون رأسماليا ، أو ماركسيا

.. تحمى تقلب المجتمع بين اليمين واليسار ... تحميه من أن تستبد به فئة قليلة طاغية ، تقوم على سند من المال .. أو على دعوى دفع الحرمان من المال .. تحميه من الصدام والصراع الطبقى ، كما يقول ماركس .. وتوفر له جو العلاقات الانسانية التى تقوم على المحبة .. والاخاء .. والمساواة فى تكافؤ الفرص فى الحياة .. وفى الاعتبار البشرى ..

... ان نظرة الاسلام الى المال ، وقد عرضناها من قبل .. تحول دون تكديس المال .. وبالتالى تحول دون أن يقوم النظام الرأسمالى ، ويسيطر على الحكم والتوجيه ، ويسلب الأفراد .. حرياتهم السياسية .. والاجتماعية .

... وهى بنفسها تحول دون النظام الماركسى اللينينى .. أو تحول دون الحاجة الى الاتجاه الاشتراكى فى جملته . لأن هذا الاتجاه ليس أصلا فى المجتمع . اذ وجوده وجود مترتب على انحراف نظام آخر قبله ... وهو النظام الرأسمالى .

... ووجوده كذلك .. وجود مؤقت ، لأنه ريثما يوجد .. يبتدىء فى الانتهاء ، بحكم التطور وحتمياته .

ولكن لا بد أن تمر فترة ، تطول أو تقصر ، حتى يدرك المسلمون قيمة اسلامهم .

ولن يدركوا هذه القيمة من غير تضحيات ، ومن غير شقاء .. وحتى تزول غشاوة العلمانية .. ويزول بريق الحضارة الأوروبية .. **فى الاغراء والدفع الى التقليد .**

.. فى التوجيه

واذا كان نظام الحكم الذى استصحبته العلمانية الى المجتمعات الاسلامية الحديثة والمعاصرة ، هو النظام الغربى الرأسمالى ... فان أمر التوجيه الذى جاء مرافقا يختلف بعض الشىء : لأن التوجيه يتميز بمصادره فى الدول الغربية .

فالمجتمعات الأوروبية التى شاركت جميعها فى نظام الحكم الرأسمالى ، على عهد الاستعمار منذ القرن التاسع عشر .. لم تكن صاحبة مصدر واحد فى التوجيه ، على نحو .. ما هى عليه من كونها صاحبة نظام واحد فى الحكم .

... اتجاه العلمانية فى الغرب ، كان اتجاه ثورات .. ونظام الحكم الرأسمالى أيضا كان نتيجة لهذه الثورات ، وان كان نتيجة غير مباشرة .

واستطاعت العلمانية الى حد كبير ، وبالأخص فى أعقاب الثورات ، أن تثبت وجودها فى ميدان السياسة ، وتبعد فى هذا الميدان سلطة الكنيسة والدين عن سلطة الدولة . ولكن لم تستطع أن تحقق هذا الوجود فى مجال التوجيه ، والتربية بوجه خاص . اذ التوجيه ، كالتربية .. يتصل بالتقاليد والعادات ، والتاريخ ، والثقافة المتوارثة ، اتصالا وثيقاً . والتغيير فى هذا المجال اذن ، تبعا لاتجاه جديد مستحدث .. لاتبدو حركته ، ان وقع .. فى صورة واضحة .

... فمقومات المجتمعات وخصائصها هى : فى هذه التقاليد ، والعادات ، وفى تاريخها ، وثقافتها الموروثة .

ومن الصعب أن يتخلى عنهـــا الأفراد فى يسر . ومهما كانت الثـــورة وفاعليتها ، ومهما كان الجديد المستحدث ونفاذه .. فانه لا بد أن يأخذ وقتاً ، وربما يطول أجله ، قبل أن تبدأ الفاعلية فى حياة المجتمع .

... ظهر اتجاه العلمانية فى أوروبا ، فى مجال التوجيه العام .. وفى فلسفة المفكرين ونظرياتهم المكتوبة .

... ولكن فى دائرة التطبيق كان يصطدم بمقومات المجتمع السابقة .. وكذا بالمعارضة الخفية للكنيســـة . لأن التوجيه هو المجال الحقيقى الذى تتنافس فيه الكنيســـة مع الدولة .. وتحاول أن تستعيد الســـيادة فيه .. ووضعها ومنزلتها على عهد العصور الوسطى .

... ومن هنا بقى التوجيه الغربى العلمانى مشتبكاً مع توجيه الكنيسة . وربما كان تميز بعض منه عن بعض يرجع الى نوع الكنيسة ، قبل أن يعود الى المجتمع نفسه .. يرجع الى الكثلكة ، والبروتستنتية .. قبل أن يعود الى الشعب والأمة . نعم ان المذهبية الدينية فى أوروبا صادفت اختـــلافا فى الشعوب المتمذهبة . وهذا الاختلاف كان له أثر حتمى .. فى تمييز مصـــدر التوجيه كذلك ...

... وأصبحت المجتمعات الأوروبية ، مع اشتراكها فى النزعة العلمانية واسهامها فى الاستعمار الغربى للمجتمعات فى أفريقيـــا وآســـيا .. تتميز فى التوجيه بمصدرين رئيسيين :

المصدر الأنجلو .. السكسونى ،

... والمصدر اللاتينى .

والأول كان للشـــعوب الجرمانية والسكسونية التى تدين بالبروتستنتية ،

فى وسط أوربا وعلى بحر الشمال الى الغرب . وتدخل فى هذه الشعوب : ألمانيا ، وانجلترا ، وبلاد اسكندناوة ، وهولندا ، وشمال بلجيكا .

والثانى للشعوب اللاتينية التى تدين بالكثلكة فى غرب أوربا ، وجنوبها ، وجزر البحر الأبيض المتوسط . وتدخل فيها : فرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال، وايطاليا ، وجنوب بلجيكا .

والمستعمرون الغربيون للبلاد الاسلامية فى افريقيا وآسيا .. هم من هذه الشعوب الأنجلو سكسونية .. واللاتينية .. ومصادر توجيههم التى حملها الاتجاه العلمانى مع استعمارهم الى هذه البلاد هى : اما التوجيه البروتستنتى، أو الكاثوليكى . أو بعبارة أخرى : اما التوجيه الأنجلو ـ سكسونى .. أو اللاتينى .

وكلا التوجيهين : فى جوهره .. يضاد الاسلام ، وفى وجوه ... يختلف عن وجوه . فاذا ضم هذا التضاد والاختلاف .. الى دعوة الاتجاه العلمانى أصلا : من ابعاد الاسلام كدين فى المجتمعات الاسلامية الحديثة والمعاصرة .. كان الأمر الذى يترتب على ذلك هو :

أولا : اخلاء حياة هذه المجتمعات من الاسلام ، فى سياسة الحكم ، والتوجيه معا .

ثانيا : شغل الفراغ بعد هذا الاخلاء بأحد هذين المصدرين فى التوجيه : السكسونى .. أو اللاتينى .. أو بهما معا فى مجالين متنوعين : كأن يشغل مجال التربية بالاتجاه العلمانى .. السكسونى .. بينما يشغل مجال التشريع بالمجال العلمانى .. اللاتينى .

والوضع فى شغل أحد الاتجاهين فى أكثر من مجال واحد من مجالات التوجيه .. كان يرتبط بسياسة الاستعمار العامة التى يتفق عليها المستعمرون .

... فان كانت المنطقة المستعمرة اتفق على أنها مخصصة لدولة استعمارية واحدة من صواحبات أى اتجاه من هذين الاتجاهين .. ساد اتجاهها ، عددا كثيرا من جوانب الحياة فى المجتمع المستعمر :

.... فشمال أفريقيا ، وهو : تونس ، والجزائر ، والمغرب ، ثم سوريا ولبنان وكذا ليبيا والصومال عن طريق ايطاليا .. ساد الاتجاه اللاتينى فى مجال التعليم ، والتشريع ، ونظام القضاء ، وميدان الثقافة العامة هناك .

... وفلسطين ، والعراق ، والهند ، واندونيسيا عن طريق هولندا .. ساد الاتجاه السكسوني فى هذه المجالات كلها ..

... ومصر قسمت بين الاتجاهين : ساد الاتجاه اللاتينى : التشريع ونظام القضاء ، وبعض المدارس العالية : كمدرسة الحقوق والآداب .. بينما ساد الاتجاه الآخر التعليم الابتدائى والثانوى ، والمدارس العالية الفنية : كالمهندسخانة ، والزراعة ، والتجارة ، والمعلمين العليا . ولغة القانون كانت الفرنسية .. على حين كانت اللغة الانجليزية هى السائدة فى المجالات التوجيهية الأخرى ..

... ذلك لأن مصر بموقعها الاستراتيجى .. أوجدت خلافا فى الرأى بين المستعمرين على أن تختص بها دولة استعمارية واحدة ، وبالأخص احدى الدولتين : انجلترا ، وفرنسا ..

● تعرضت اذن المجتمعات الاسلامية المعاصرة فى دائرة التوجيه ، كدائرة نظام الحكم . الى قضية الفصل بين الدين والدولة : فى التعليم ، وفى التشريع ، وفى الثقافة ، وفى تقييم السلوك الانسانى .. فى ادارة المصالح ومكاتبها ..

... وتعرضت الى عزل مناهج التعليم عن .. تاريخ الأمة السياسى ، والفكرى ، والروحى ، والثقافى .. والى جعل هذه المناهج وعاء لكل ما للأجنبى المستعمر ..

... وتعرضت الى اخلاء القانون من القيم الاسلامية والآراء الفقهية ، والاستعاضة عنها بالقوانين الغربية التى هى تعبيرات عن أوضاع المجتمعات الغربية .. وعن بيئتها .. وحضارتها .. وايمانها ..

... وتعرضت الى فصل القيم الأخلاقية الاسلامية ، مع التركيز على الاستخفاف بها ، فى سلوك الأفراد والمجتمع .. ثم الى الاتجاه الى تقليد قيم الحضارة الغربية .. فى تصرفات الانسان .. فى أى مجال من مجالات الحياة ..

... وبتعرض المجتمعات الاسلامية المعاصرة الى عزل الماضى عن الحاضر ، على هذا النحو .. اهتز الماضى كله . ولم يعد يصلح لأن يكون سندا فى توجيه حاضر أو مستقبل ، لأجيال احتضنت تفكير الغرب ، وتاريخه ، ولغته ، وأدبه ، وفنه ، ومقياس سلوكه فى التصرفات .. لأنها نشئت عليه وحده .. وعلى الاستخفاف بجانبه كذلك .. بتراث الماضى للمجتمع ..

.. كل ما فى الغرب جديد نافع !.. وكل ما فى الشرق قديم بال !...

كل ما فى الغرب حضارى جذاب !.. وكل ما فى الشرق بدائى منفر !.. كل ما فى الغـــرب : حسنه وقبيحه(١) مقبـــول !.. وكل ما فى الشرق : حســـنه وقبيحه على السواء مرفوض .. ! تلك هى الجمل التى يمكن أن تعبر عن اتجاه العلمانية فى التوجيه .. بعد استيطانه فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة .. وبعد تخريج الأجيال عليه .

... ماضى الغرب ، وحاضره ، سواء فى القيمة .. لا يختلف قديمه عن جديده فى التقييم . هكذا كان يحمل اتجاه العلمانية فى المجتمعات الاسلامية . والا :

بم تفسر ظاهرة احترام رجل الدين الغربى فى المجتمعات الاســـلامية المعاصرة : عن رجل الدين المسلم فيها ؟

... ثم بم تفسر ظاهرة الامساك عن مناقشة المسيحية فى الدراسات الجامعية فى هذه المجتمعـــات .. بينمـــا يتعرض الاسلام للمنـــاقشة فى غير احترام ؟

قد يقال ، جوابا على ذلك : ان رجل الدين الغربى مثقف ، يعرف لغات أجنبية .. بينما العـــالم المسلم لا يصل الى مســـتواه فى التثقيف واجـــادة اللغات !! .

... وقد يقال أيضا : ان الاسلام سمح .. يقوم الايمان به على الحرية فى تقبله ! !

... وقد يقال غير ذلك .

... ولكن الاتجاه العلمانى وحده .. هو المسئول عن المعيار الذى على أساسه كان : رجل الدين الغربى مثقفا ! .. والعالم المسلم غير مثقف ! ..

وهو المسئول ايضا عن تأكيد : **حرمة** المسيحية ، وترك الرأى فيهـــا لرجالها وحدهم .. دون غيرهم .

وهو المسئول كذلك عن تخفيف حرمة الاسلام .. وتقليل احترامه فى نفوس المسلمين الجدد .

● وكما تعرضت المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، بسبب توطين الاتجاه العلمانى فيها الى عزل الحاضر عن الماضى ، واهتزاز قيم الماضى كلها ، وعدم صلاحيتها لمساندة الحاضر والمستقبل فيها .. تعرضت للفوضى الفكرية ..

---

(١) يراجع كتاب مستقبل الثقافة بمصر سنة ١٩٣٧ .

والتفتيش عن عقيدة جديدة .. يجتمع عليها أفراد المجتمع .. ابعادا لأخطار هذه الفوضى .. على نحو ما تعرضت ، وتتعرض له ، المجتمعات الغربية التى تبنت الاتجاه العلمانى .. ثم دفعت به الى الاستيطان فى بلاد الشرق الاسلامية .

... ان التفتيش عن دين جديد ، كما اهتدى **كونت** فى المجتمع الغربى الى أنه : دين الانسانية ... وكما وصل بعده فيه **فيرباخ** الى أنه دين الانسانية العامة ... وتبعه كارل ماركس ، فحدده بأنه : دين المجتمع والعقلية الجماهيرية ... **يدل على الفراغ فى حياة الغرب الذى خلفه اتجاه العلمانية فى صراعه مع الكنيسة** . اذ هو — ان لم يقوض سلطتها — قد دفع بالشك فيما تصنعه فى مجالها . والغربيون لا يعرفون المسيحية الا عن طريق الكنيسة والكنيسة فى الغرب وصنعتها هى .. ترجمة المسيحية .. هى جسمها المادى .

وعن هذا الشك فى الدين لم يكن تمسك الغربيين بالمسيحية **تمسك ايمان** انفعلت به نفوسهم .... وانما هو تمسك تعصب : لأنها تكون جانبا أساسيا فى حضارتهم القائمة .

... ولم يزل دين الانسانية ، كدين المجتمع ، فى صراع مع **دين الكنيسة** ، ولم تزل فترة هذا الصراع مستمرة . وبذلك يتعرض المجتمع **الغربى للانقسام** الأيديولوجى والعقائدى . وربما تكون الحرب العالمية الثالثة القادمة هى حربا أيديولوجية عقيدية فى الدرجة الأولى ، وليست اقتصادية ، **كما كانت فى** الحربين العالميتين السابقتين . وذلك لانهاء الصراع الذى قسم المجتمع الأوربى الى : **غرب وشرق** .

والمجتمعات الاسلامية المعاصرة فى تعرضها لما تعرضت ، **وتتعرض له** المجتمعات الأوربية للفوضى الفكرية والعقيدية . وللانقسام **الأيديولوجى** والعقيدى ، تحت دفع الاتجاه العلمانى المستوطن بعد اخلاء الوطن الاسلامى من دينه ، وهو الاسلام ... تدخل مكرهة وغير مريدة مجال الانقسام الى : **غرب وشرق** . وهى فى انحيازها الى هذا أو الى ذاك .. تنحاز **انحياز التابع** والمقلد ، وليس انحياز المؤمن ، الذى قيم ما يؤمن به قبل الايمان به .

● ولم يكن توطين الاتجاه العلمانى فى التوجيه فى المجتمعات **الاسلامية** المعاصرة صاحب أثر عليها فقط .. فى التبعية للفوضى الفكرية **الغربية** ، وفى التفتيش عن دين جديد لانقاذ المجتمع الأوربى .. والانحياز الى **الغرب** أو الشرق فى الأيديولوجيات العقائدية ، ومحا بذلك استقلالها الانسانى .... بل ذهب فى مجال التبعية وضعفها الى مدى أوسع من ذلك .. ذهب الى تشجيع

اقامة المدارس الدينية التبشيرية فى هذه المجتمعات بوسائل شتى .. ذهب فى ذلك انه ربط تخرج الوطنيين فيها بالوظائف المرموقة فى الاقتصاد القومى : كوظائف البنوك ، ومؤسسات التأمين ، والشركات المختلفة . وبهذا جعل المجتمع الوطنى ... طوائف ومجموعات ، تنتسب فى التوجيه الى لغة أجنبية معينة ، ترمز الى اتجاه **سكسونى أو لاتينى** .. فى مجال التوجيه .

... ويفعل المستعمر ذلك ، مع أنه لا يوافق أصلا على دخول الدين فى التربية بوجه خاص .. لأنه سيعينه على تحقيق هدفه فى المحاولة فى توطين اتجاهه العلمانى . وهو هدف الابقاء على الضعف فى المجتمع الاسلامى ، وعلى التبعية للمجتمع الغربى فى سياسته ، وتفكيره ، وقيادته .

● ولو بقى المسلمون فى مجتمعاتهم على الأخذ بنظام اسلامهم .. لما فقدوا استقلالهم الانسانى ، ولما ارتبطوا فى التبعية بالغرب .. الى حد مجاراته فى وسائل خروجه من حيرة الفوضى الفكرية .. والى حد الانحيار الى الغرب أو الشرق فى صراع عقائدى ، كانوا بحكم تكوين مجتمعهم فى بعد عنه : ان فى جوه وبيئته .. وان فى جوهره وذاته .

لكن هل كان يمكن أن يبقى المسلمون على الأخذ بنظام الاسلام ؟

لم يكن فى واقع الأمر ذلك ممكنا ، لا لذات الاسلام ونظامه .. وانما لشيخوخة المجتمع التى استجاب ضعفها للاستعمار ، والتى أفسحت للمستعمر مجال الحياة للاستغلال الاقتصادى ، والتبعية السياسية ، والفكرية ، والتوجيهية . للغير .

.. ان ذلك أمر يخضع لحتمية التطور ، أكثر من الخضوع الى الرغبة والتمنى ولكن الذى يصح أن يسئل عنه الآن :

هل من الممكن أن يعود المسلمون ، وهم فى نهضتهم من الضعف ينشدون القوة ، وفى خروجهم من الفرقة يؤملون فى الوحدة .. بالنظر فى دينهم ويرون فيه ما عرضنا لنماذج منه فى هذا الكتاب ، كدين يرسم جوانب الانسانية . فى التوجيه والسلوك ، فيكون لهم غناء .. ويكونون به مستقلين وأصحاب وضع : **لا هو الى الشرق .. ولا هو الى الغرب ؟**

ومتى يتم ذلك ؟

ان اتجاه العلمانية كان محنة وبلاء للمسلمين فى مجتمعاتهم ، وان كان يراه بعضهم انه أمل الحياة وقبس النور فيها !!! انه فى التوجيه ، والتشريع ، والثقافة والتعليم ، كان الأخطبوط المخرب لقيم المجتمع الاسلامى ، والمقوض لأصالته ، وان لم تزل حتى الآن خطوطه الواضحة المعالم ، تشد السالكين

اليها ... حتى فى تلك المجتمعات التى تعتز وتفاخر بأنها بقيت اسلامية فى جذورها وعوارضها ، كمجتمع الوهابية فى السعودية ومجتمع السنوسية فى ليبيا .

ألم يدل ازدواج اتجاه التعليم فيها بين **اسلامى ومدنى** .. بين انشاء جامعة اسلامية ، مع معاهد دينية .. وجامعة علمانية ومدارس مدنية .. على التأثر بالفكرة العلمانية الغربية ؟

... لم تقام جامعة الرياض فى السعودية ، وجامعة بنى غازى فى ليبيا . بجانب جامعة اسلامية أخرى فى كل بلد منهما ، مستقلة كل واحدة عن الأخرى .. فى التوجيه ، وتخطيط البحث ، والمنهج ؟

ان القاهرة ، وتونس ، وفاس ، والخرطوم ، ولاهور ، وجاكرتا ، كانت مكرهة على قبول التوجيه العلمانى ، وعلى انشاء جامعات ومدارس .. على أساس من هذا الاتجاه .. بفعل الاستعمار وتخطيطه .

ولكن جامعة الرياض ؟

ولكن جامعة ليبيا فى بنى غازى ؟

.. الرياض لم تستعمر اطلاقا . وليبيا لم تنشىء جامعتها الا بعد الاستقلال .

ولكنها موجة تقليد الغرب ... ولكنها النظرة .. لم تزل محجوبة عن الرؤية الواضحة .. وستظل محجوبة ، الى أن تنتهى فترة **احتضان العلمانية ، ويبلغ المسلمون الرشد فى الفكر الاسلامى .**

عودة المادية فى سيطرتها على العلاقات الانسانية :

ومهما كان من أسباب نشأة العلمانية وظهورها فى المجتمع الأوربى ، وهى أسباب تعود الى الكنيسة فى مباشرة سلطتها وفى توجيهها فانها أتبعت بعدها عن الكنيسة بعدها عن الدين ، وبعدها عن المقاييس الأخلاقية السائدة ، وقت نشأتها .

وأقل ما يقال فى هذه المقاييس الأخلاقية ... انها كانت تحمل على التخفيف من جنوح المادية فى تأثيرها على الفرد فى سلوكه .. أو كانت تحمل على التوازن ، قليلا أو كثيرا ، بين الروحية والمادية فى المجتمع . ويدل على ذلك : ان الرأسمالية فى طغيانها وسيطرتها .. لم تظهر الا بعد الانفكاك عن الروحية بفعل العلمانية .. وبعد تأثير بعض خطوات الاصلاح الدينى فى أوربا فى القرن السادس عشر .

● وبعد العلمانية عن الدين وعن المقاييس الأخلاقية لم يكن تجنبا وانفصالا ... وانما كان معاداة وغلوا فى العداوة . وبذلك كان التمهيد لاعلان المادية الجامحة فى الحياة الانسانية ... واعلانها فى أسس البحث العلمى ... واعلانها فى انكار الألوهية .. واعلانها فى وجود المجتمع .. واعلانها أخيرا فى الاقتصاد ، كمصدر لكل وجود ، وكل ظاهرة حياة انسانية !

وازدهار الصناعة الغربية .. وجد فى هذا الجو .. بل كان هذا الجو سببا رئيسيا فيه ، ولذا ارتفعت قيمة العامل المادى عن قيمة العامل البشرى ، بحيث أصبح العامل المادى مستهدفا لذاته ، أكثر من طمأنينة الفرد نفسه ، وأكثر من حسن العلاقة بينه وبين غيره .

... الى أن حل القرن العشرون ، وكان الصدام الاقتصادى ، أو كان الصدام بسبب العامل المادى ، فى الحربين العالميتين .. الأولى ، والثانية.

... فمنافسة الحصول على المواد الأولية من أجل الصناعة الأوربية فى المستعمرات الافريقية والآسيوية .. كانت السبب بين المانيا من جانب ، والحلفاء من جانب آخر . فى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

... والتزاحم على الأسواق الاستهلاكية وعلى مصادر المواد الخام فى افريقيا ، وآسيا وأمريكا اللاتينية .. كانت العامل فى نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ .. بين ألمانيا من جانب .. والحلفاء مرة أخرى من جانب آخر .

... وفى فترة ما بين الحربين ، وكذا فى فترة ما بعد الحرب الثانية حتى الآن ... لم تخمد جذوة العامل الاقتصادى ولم تخف حدته فى التأثير ، **وفى دفع الحياة البشرية فى غير وعى بالقيم الانسانية ، وفى غير تبصر بمصير المجتمع البشرى نفسه** . بل على العكس : أخذ هذا العامل يزداد تأثيرا ودفعا .. منذ النصف الثانى من قرننا الحالى ، وأخذت الأيديولوجية الاقتصادية .. تعبر عن نفسها فى وضوح فى الصراع مع الأيديولوجيات الأخرى الباقية فى المجتمع الانسانى .. ومنها أيديولوجية القيم الدينية والروحية .

... وكان من الأسباب التى زادت فى تأثير العامل الاقتصادى ، وفى ضغطه على الانسان فى تفكيره ، وعلى أحاسيسه وفى ارادته وتوجيهه .. وفرة العمل فى المصانع ويسر الحصول على مستوى مادى مناسب فى المعيشة .. مضافا ذلك الى قلة الاكتراث بمستقبل البشرية ، والى التخفف من الشعور بالمسئولية الفردية والجماعية . رغم شيوع الاتجاه الاجتماعى ، وتأكيده لمعنى الجماعية !

اذ ضغط الجانب الاقتصادى ، أو ضغط الجانب المادى على العموم ، على التفكير ، والوجدان والارادة فى الانسان ... ليست له الا نتيجة واحدة هى : تلك الحالة التى لا يجد الانسان فيها ذاته كانسان ، بل كعجلة صماء ، فى آلة عمياء ، تتحرك بارادة الغير ، وتقف عن الحركة بمشيئته .

... كذلك الانسان الذى سيطر عليه الاتجاه المادى .. ويعيش فيه وتحت تأثيره ... ولا يرتفع فوقه ليقيمه . ومن ثم يهتز بدفعه وحده ، ويتقلب فى الحركة بين اتجاهات مختلفة ومتضادة بفعل تأثيره ، دون أن يكون له تفكير يرجح ، أو ارادة تصمم .. والاتجاه المادى ، عندما يدفع .. يدفع دون ان يرى .. ويحرك بقوة شده لا غير . فهو كالآلة التى لا تتخلل المشيئة حركتها .

... هذا بالاضافة الى الآثار السلبية النفسية التى تخلفت عن اهتزاز البشرية فى مقدراتها فى النصف الأول من هذا القرن ، والتى لم تزل قائمة فى النصف الثانى منه تحت تصور : احتمال حرب ثالثة ... لا تبقى ولا تذر !

... ولم يخل جانب من جوانب الحياة الانسانية .. الا حل به التغير ، نتيجة لتأثير العامل المادى ، وسيطرة اتجاهه . ولم ينج من هذا التغير كذلك ... ما بين الرجل والمرأة من صلات وعلاقات . والتغيير الذى طرأ عليها .. هو تغيير فى تكييفها ، وفى تقديرها .

... والاتجاه المادى بحكم فاعليته يستتبع ظواهر فى هذه العلاقات بين الجنسين ، وهى ظواهر المجتمع الطليق من القيود ، والمتحرر من القوانين ... هى ظواهر المجتمع الأولى أو البدائى .. رغم ما يوجد فيه من مظاهر حضارية مادية أخرى : كتقدم الصناعة والتكنيكية . لأن قيود المجتمع هى : حصيلة التفكير فى ضبط العلاقات بين الأفراد ، وعدم خروجها من نطاق الحرمات ، التى تكون لهم .. صيانة لأموالهم ولنفوسهم .. ومساكنهم .. ومجالاتهم فى العمل ... الخ .

وهذه القيود تترجمها القوانين المختلفة المنظمة لهذه العلاقات ، ومنها تتكون الحضارة الانسانية .. أى التى تتجلى فيها القيم الانسانية .

أما الحضارة المادية فهى لا تعكس قيما انسانية .. بقدر ما تعكس مجهودا بشريا ، قد يدفع اليه الانسان ، دون ان يريده ويختاره .. وأى أمر لا يمثل اختيار الانسان .. لا يكون حضارة معبرة عن انسانيته ، وانما يكون عملا من الانسان أتى به . والانسان قد يأتى بأعمال كثيرة ، هى نتيجةالغريزة الحيوانية فيه .. ومدفوع اليها ، كما يدفع الحيوان فى حركته .

وتبع هذا التغير فى ظواهر العلاقات بين الرجل والمرأة .. ان ليست

العلاقة بينهما بالعامل الاقتصادى وحده . ومن ثم تعدلت الاتجاهات فيها وتعددت .. وتحكمت الفردية فيمـــا يطلب لها من أوضاع . وعاد مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية .. يحكى فى هذه العلاقات ، مجتمع ما قبل الاســـلام .. يحكى أى مجتمع آخر ، لم تســـد علاقات أفراده قيم عليـــا انسانية .

... وتطبيقا للاتجاه العلمانى المستورد فى المجتمعات الاســـلامية المعاصرة .. أصبحت تقاس العلاقة بين الرجل والمرأة ، زوجا وزوجة ، أبا وأولادا ، أما واخوة ، بمقياس العامل الاقتصادى ، سواء : فى تكوينها وانشائها ، أو فى الاستمرار فيها ... كما أصبحت المرأة المسلمة لا ترى غضاضة من الزواج بغير المسلم ! وتدفع الى مجال العمل الخارجى دفعا لم تزن فيه قيمة رسالتها فى الأسرة .. رغم أن هنا وفرة غير محدودة بين الشبان والرجال فى بعض هذه المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، مما سيزيد فى مشكلة المرأة نفسها ، ويحملها على قبول العلاقة مع الرجل فى أية صورة أخرى ، وراء الصورة التقليدية التى يعرفها المجتمع ، هى صـــورة الزواج المشروع .. وكذلك مما سيجعل فيها مشاكل اجتماعية ، وصحية .. بسبب **الاضطرار الى قبول علاقات جنسية غير مشروعة .. لا يعرف مدى تأثيرها على مستقبل هذه المجتمعات .**

.. ولكنه التقليـــد الحتمى الذى فرضـــــته العلمـــــانية على هذه المجتمعات ! ..

ولكنه كذلك الفراغ الداخلى ، وهو الفراغ النفسى الذى ســـــببته زحزحة الاسلام عن وضعه فيها ... ولكنه أيضا شد الجاذبية الى الغرب ، الذى لم يتراخ بعد .. لكن ذلك كله هو الذى يدفع المرأة المسلمة الى العمل الخارجى .. وهو أيضا الشىء الذى يغريها ويفسح لها فى مجال العمل مكانا .. لاعم خصائصها ومستقبلها ، كزوجة وأم .. أم لا ؟

... ومن هنا كان اقبال الفتاة المسلمة على الجامعة . فلم تكن الثقافة الجامعية هدفها فى واقع الأمر ، كما لم تكن حاجة العمل وضروراته هى الدافعة الى عملها من قبل فى الخارج .. وانما الشـــهادة الجامعية كوسيلة لفرصة أحسن فى الأجر ، لا غير .. كانت الدافع الحقيقى .

أين المجتمع الاسلامى فى افريقيا ، وآسيا الذى استوعب العمل فى مصانعه ، ومزارعه ، وتجارته ، وادارته المختلفة .. جميع القوة العاملة من الذكور ، وأصبح فى حاجة الى مزيد فى قوة العمل من الاناث ؟ تحت ضرورات الانتاج أو الخدمات ؟ .. كالمجتمع الألمانى والأمريكى مثلا ؟

... لا يوجد عدد من بينهـــا . لأنها تعـــانى التخلف العلمى ، والصناعى ، والتكنيكى .. ولأنها لم تتخط عتبة الانتاج الزراعى ، والعمل فى المجال التجارى ... ولأن ما أقدم منها على التصنيع ، لم يزل يفتقـــر الى الصناعة والمهارة الفنية فى العمل فيها . وبذلك لم يتجاوز فى الوجود أياما .. فى أجل طويل ، لابد أن يمـــر هذا الأجل قبل وجود **المســـتوى** الصناعى المعروف فيه .

... وان ما يسمى **بمشـــاكل المجتمع الصـــناعى** لم يوجد بعد فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، وليس بينها مجتمع صناعى بالمعنى المصطلح عليه ... ولكن فقط بحكم التقليد ، والانسياق فى المحاكاة . وهذه المشاكل اذ توجد فى هذه المجتمعات ... توجد وحدها ، دون أن تصـــحبها نتائج الصناعة ، والتقدم العلمى ، والتكنيكى . ومن رفاهية مستوى المعيشة وازدهار الحياة الاقتصادية فى المجتمع او المجتمعات التى توجد فيه ولهذا هى مشـــاكل وجدت فى هذه المجتمعات .. دون أن يكون لهـــا مقابل من المنفعة ... والا فأين مستوى هذه المجتمعات من مستوى المجتمعـــات الغربية فى المعيشة ؟ . انها لا تكاد تعيش الا بالقوة وليس بالفعل .. ان مستواها فى المعيشة المادية أقل بكثير من مستوى الانسان ، **الذى** يتحدث عنه فى القرن العشرين .

والاسلام يواجه اليوم طغيان الاتجـــاه المادى ، على نحو ما كان فى المجتمع السابق عليه وهو مجتمع ما يعرف **بمجتمع الجاهلية** .

... والدعوة الاسلامية اذ ذاك .. نجحت فى تكوين مجتمع انسانى من المجتمع المادى السابق ، تخلص من انحرافات هذا الاتجاه .

... وحقق القيم الانسانية فى علاقات الأفراد بعضها مع بعض .. وفى مقدمتها : علاقة الرجل بالمرأة ..

واستهدف فيها الانسان ككل .. دون أن يركز على بدنه .. ودون أن يشل سمعه وبصره وفؤاده ، فلا يدرك الا عن طريق البدن وحده ، ولا يقيم به أمرا .. لا تدفع اليه الشهوة والغرائز اللاشعورية .

... ومع ذلك فقد استطاع الاتجاه العلمانى ، ولو الى حين .. أن يخلى مجال الحياة الانسانية من الاسلام فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة .

... ومع ذلك فهل ينادى بالاسلام لحل مشاكل المجتمع الصناعى التى أقحمت بغير صناعة قائمة ؟ .. تلك المشاكل التى وردت الى المجتمعات الاسلامية والتى ستتقلق آثارها بعد فترة أخرى قصيرة ... نفس الأجيال

التى استقدمتها ، وتدافع عنها حتى الآن ؟ لأن الحلول التى ستقلد فيها هذه الأجيال تحت حتمية الاتجـــاه العلمانى ، **هى حلول الشـــيخوخة التى حلت بالمجتمعات ذات الحضارة الصناعية المعاصرة الأوربية ... هى حلول تعبـــر عن أن الزمام هناك قد أفلت .. وأن القيادات فى هذه المجتمعات تتعثر فى طريق الانســـــانية ، وما كان للشيخوخة لا يجدى اقتباسه فى المجتمعـــات الناهضة .. لأنه يكون عندئذ كعلاج الضعيف .. بما يزيده ضعفا .**

... ولا نغتر اطلاقا بعصر الصواريخ ، والوصول الى المريخ ، وعهد التقدم التكنيكى .. فانها دليل البداية لانهيار المجتمع الانسانى ، كمجتمع انسانى فى تلك المجتمعات الحضارية الصناعية ... انها دليل القلق الذى سوف لا ينتهى ... حتى تسود القيم الانسانية من جديد فى مجتمع ما .. ثم تنفذ الى تلك المجتمعات الأخرى عداه .

● ما هى الآثار المرتقبة .. لمشكلة زيادة السكان فى العالم ؟

● ما هى الآثار .. المترتبة على التسابق فى التسليح المدمر بين سكان العالم .. ككل ؟

● ماهى الآثار .. المترتبة على حرب الأيديولوجيات التى اســـتخدم فيها التكنيك .. والعلم .. بكل الابداعات والمخترعات ؟

● ما هى الآثار .. التى تنشأ فى أحاسيس الناس من قلق اليوم .. والخوف من الغد ؟

... وكلما تقدمت الحضارة المادية الصناعية وحدها بدون تقدم فى الجانب الانسانى .. كلما تعقدت هذه المشاكل .. وكلما زاد من فرص الانهيار فى المجتمعات الانسانية ، وزاد من صور الفوضى الكاسحة .

... انا نستبعد أن ينادى بالاســـــلام ليطلب منه الحل فى الوقت الحاضر ، أو يفكر فى ندائه لفترة أخرى .. قد تطول وقد تقصر ! .

وننتظر ، على العكس .. أن تتعمق جذور مشاكل المجتمع الصناعى المعاصرة فى المجتمعات الاسلامية الحاضرة ، بدون تقدم صناعى فيها ، يوازى على الأقل آثار هذه المشاكل .. لأن فترة **الحضانة** للاتجاه العلمانى فيها .. لم تنته بعد .

... ننتظر على العكس .. أن تزداد حدة الهجوم على الاســـــلام والمبادىء الاسلامية فى المجتمعات الاســـــلامية المعاصرة ، ليبلغ الصراع الأيديولوجى قمته .. فيفسح الطريق من جديد .. للاسلام .. ولمبادئه .

التأمين والتكافل :

والميزة التى يتميز بها المجتمع الصناعى المعاصر ، وتعتبر قمـــة الحضارة الانسانية من جانب آخر ، وهى نظام التأمين فى الرأسمالية ، وصنوف الرعاية الاجتماعية فى النظام الاشتراكى .. ليست بعيـــدة عن أهداف الاسلام ومبادئه . وبذلك لا يكون الاسلام صورة من صور التاريخ السابقة التى أدت مهمتها للبشرية ، فى غير وقت الصناعة والتقدم العلمى التكنيكى !

... بل ربما فى الاسلام ، كعقيدة وايمان .. ما يدفع على التكافل ، وما يعين على تعميم نظام التأمين ، ويؤكد أنواع الرعاية الاجتماعية . فدفع العقيدة أقوى ، ونطاقها أوسع وأشمل . ويومئذ يتيسر للاقتصاد القومى فى أى مجتمع اسلامى .. أن يواجه مسئوليات المعيشة : فى ايجاد فرص العمل ، وفى رفع مستواها . وذلك لشمول نظام التأمين يومئذ مع الرغبة فيه ، مما يتيح الفرصة الواسعة للتنمية الاقتصادية فى المجتمع .

... ولكن مع ذلك : هل يطلب الاسلام فى هذه المجتمعات الاسلامية المعـــاصرة ليســـهم بدعوته فى مشكلة التنمية الاقتصادية ؟ وهى مشـــكلة متعددة الجوانب وعميقة الأصول ؟ .. وهى مشكلة معقدة فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة بفعل الاستعمار .. فى استغلال الاقتصاد القومى ، وربطه بالاقتصاد الأوربى . وليس من السهل ... العمل على استقلاله .. كما ليس من السهل الاكتفاء الذاتى ... عن طريق الخبرة الفنية الوطنية وراس المال الوطنى وحده ... للتوســـع فى الانتفـــاع بالطاقات المتوفرة فى البلاد .

ان الجواب هو : لا .. للسبب السابق ، والوقوع حتى الآن تحت تأثيره .

* * *